الصباح الإسلامية
07
العدد 1922 - السنة السابعة
الجمعة 27 رمضان 1435 - الموافق 25 يوليو 2014
Friday 25 July 2014 - No.1922 - 7th Year

الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

«وأرسلنا الرياح لواقح»

يقول الله سبحانه وتعالى في محكم آياته: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾... (الحجر:22). اعتقد بعض المفسرين أن المقصود بالرياح لواقح هو دور الرياح في نقل حبوب اللقاح إلى أعضاء التأنيث في الأزهار ليتم الإخصاب وتكوين الثمار وهو دور معروف وثابت علميا.

ولكن الجملة التي تليها لا تؤيد هذا التفسير فعبارة فأنزلنا من السماء ماء وهو المطر تدل على أن عملية إرسال الرياح لواقح لها علاقة مباشرة بنزول المطر. واستخدام حرف العطف «ف» الذي يدل على الترتيب والتعقيب، يوحي بسرعة نزول المطر بعد إرسال الرياح لواقح ولما لم تكن هناك أية علاقة بين تلقيح النباتات وحمل حبوب اللقاح ونزول المطر فلابد أن يكون للآية معنى آخر يذكر د. زغلول النجار في حديثه عن الإعجاز العلمي للقرآن الكريم:

أن هناك ثلاثة أنواع من التلقيح تتم في السحب:

1 – تلقيح السحب الحارة بالسحب الباردة مما يزيد عملية التكاثف وبالتالي نزول المطر.

2 – تلقيح السحب موجبة الشحنة بالسحب سالبة الشحنة ويحدث تفريغ وشرر كهربائي فيكون المطر مصحوبا بالبرق والرعد وهو صوت تمدد الهواء الناجم عن التفريغ.

3 – التلقيح الثالث وهو أهم أنواع التلقيح جميعاً هو أن الرياح تلقح السحاب بما ينزل بسببه المطر، إذ أن نويات التكاثف وهي النويات التي يتجمع عليها جزيئات بخار الماء لتكون نقطا من الماء تامية داخل السحب.

هي المكونات الأولى من المطر تحملها الرياح، إلى مناطق إثارة السحب، وقوام هذه النويات هو أملاح البحار، وما تذروه الرياح من سطح الأرض، والأكاسيد والأتربة كلها لازمة للإمطار وهذه هي فكرة المطر الصناعي، عندما تقوم بعض الطائرات برش السحب التي سبق وأن تكونت ببعض المواد تعمل كنويات تكاثف، يتكاثف عليها المطر ويبطل أي أن الرياح عامل أساسي في تكوين السحب، وتلقيحها ونزول المطر. ودائما ما يربط القرآن بين الرياح والمطر، ففي سورة الأعراف ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

الإيمان.. من المظهر إلى الجوهر

من الناس من لا يكاد يفهم من الإسلام إلا الشكل لا الجوهر، والصورة لا الحقيقة؛ فاهم ما يعنى به في دينه: إعفاء اللحية وتطويلها، وتقصير الثوب، وحمل المسواك، ولصق القدم بالقدم في الصلاة، او وضع اليدين في القيام عند الصدر او فوق السرة، والشرب قاعدًا لا قائمًا، وتحريم جميع انواع الغناء والموسيقى، وإيجاب لبس النقاب على المرأة، ونحو ذلك.

وهذه كلها امور تتعلق بالمظهر اكثر مما تتعلق بالجوهر، وكنت اود من إخوتي هؤلاء لو وجّهوا اكبر عنايتهم إلى الجوهر والروح في تعاليم الإسلام، بدل الشكل والمادة.

فالإسلام عقيدة: جوهرها التوحيد، وعبادة: جوهرها الإخلاص، ومعاملة: جوهرها الصدق، وخُلق: جوهره الرحمة، وتشريع: جوهره العدل، وعمل: جوهره الإتقان، وأدب: جوهره الذوق، وعلاقة: جوهرها الأخوة، وحضارة: جوهرها التوازن.

فمن ضيع التوحيد في العقيدة، والإخلاص في العبادة، والصدق في المعاملة، والرحمة في الخُلق، والعدل في التشريع، والإتقان في العمل، والذوق في الأدب، والأخوة في العلاقة، والتوازن في الحضارة: فقد ضيع جوهر الإسلام، وإن تمسك بظواهر الرسوم والأشكال.

وليس هذا القول مجرد دعوى بلا دليل، بل الأدلة على هذا القول من القرآن والسنة كثيرة.

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، وإن صلى وصام وزعم انه مسلم. ومن كانت فيه واحدة منهن كان فيه شعبة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» متفق عليه.

الإيمان بين المعرفة والتطبيق

يحسب بعض الناس ان الإيمان الذي ينجي الإنسان من النار، ويؤهله لدخول الجنة في الآخرة، ويجعله اهلا لولاية الله تعالى ونصرته ودفاعه في الدنيا مجرد معرفة ذهنية، كثيرًا ما يُحشى بها عقله، وبعبارة ادق: تخزن في ذاكرته في فترة الصبا ويلقنها تلقينًا ان الله تعالى واحد لا شريك له، وانه سبحانه متصف بكل كمال، منزه عن كل نقص، وان له صفات عليا هي كذا وكذا.

وما زلت اذكر كيف كانوا يلقنوننا –ونحن في الكُتّاب– العقيدة، على مذهب الأشاعرة المتأخرين، وهي: ان لله تعالى صفات عشرين هي: الوجود، والقدم، والبقاء، ومخالفته تعالى للحوادث، وقيامه تعالى بنفسه، والوحدانية، والعلم، والإرادة، والقدرة، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، وكونه تعالى عالمًا، ومريدًا، وقادرًا، وحيًا، وسميعًا، وبصيرًا، ومتكلمًا. وكنا نحفظ هذه الصفات بترتيبها هكذا، ولا نعرف من معناها شيئًا.

وبعد ان كبرت ووعيت حاولت ان افهم الفرق بين العلم، وكونه تعالى عالمًا، والقدرة وكونه تعالى قادرًا... إلخ. ولم استطع ان افهم، ولم اجد من قدر على ان يفهمني، برغم اننا درسنا هذه الصفات في المراحل الابتدائية، والثانوية، والعالية، من الدراسة في الأزهر الشريف.

واهم من ذلك ان هذه الدراسة للعقيدة لم تكن تلمس في روح الإنسان وترًا، او تحرك له قلبًا، او تحيي فيه ضميرًا. إنها دراسة جافة، خاوية من رحيق الإيمان الحق الذي يقوم عليه منهج القرآن في تكوين الإيمان، وفي تثبيت الإيمان.

وهو منهج يقوم على النظر والتفكر في آيات الله تعالى: في الأنفس، والآفاق: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾.. الأعراف: 185 ، ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ × وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.. الذاريات: 20، 21 ، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.. آل عمران: 190.

وقد اعجبني بالمنهج السلفي: لعنايته بالرجوع إلى القرآن الكريم، والسنة المطهرة في إثبات العقيدة وتثبيتها، مرجحًا اساليب القرآن على اساليب فلسفة اليونان، حسب تعبير العلامة ابن الوزير اليماني.

كما اعجبني من هذا المنهج تركيزه على تحرير التوحيد من كل شوائب الشرك: اكبره واصغره، جليه وخفيه، وتحرير الإنسان من العبودية للإنسان، وتجريد العبودية لله وحده.

ولكن الاتجاه السلفي المعاصر: غرق في خضم الجدل في مسائل العقيدة، وغدا شغله الشاغل: ما يتعلق بما سماه «آيات الصفات»، و«احاديث الصفات»، والمراد بها الصفات الخبرية التي وقع النزاع بين السلف والخلف حول تاويلها او عدمه. وكأنما هي لب العقيدة، وجوهر التوحيد.

وماخذي على هذا الاتجاه –كما يلقن الآن– امران:

الأول: تركيزه على هذا الموضوع المختلف فيه، على حساب المتفق عليه، والذي هو الأصل في العقيدة من إثبات وجود الله تعالى، ووحدانيته في ذاته وصفاته وافعاله، وتجريد العبادة له وحده، ووصفه بكل كمال يليق به عز وجل، ونفي كل نقص عنه من الشريك والولد والند والشبيه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ .. الشورى: 11 ، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ × وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ .. الإخلاص: 3، 4.

والواجب تدريس هذه الأشياء للمختلف فيها، كما جاءت في القرآن والسنة، لا ان يُجمع بعضها مع بعض في سياق واحد، يعطي من الظلال ما لا يعطيه سياقها في مواقعها المتفرقة من الكتاب والسنة.

الثاني: ان هذا الاتجاه وقع فيما وقع فيه الاتجاه العقلاني الأشعري الآخر، من اعتبار الإيمان مسالة معرفية ذهنية، وبعبارة اخرى: استيعاب عبارات مرصوصة، وحفظ جمل ومصطلحات مصبوبة في قوالب جامدة.

فمن حفظ هذه العبارات او المصطلحات فقد سلمت عقيدته، وصح إيمانه، وتحرر توحيده من الشركيات والكفريات.

إيمان القرآن والسنة

إن إيمان القرآن والسنة شيء آخر. إنه نور يضيء كل جوانب النفس، بنور العقل، وينعش الوجدان، ويحرك المشاعر، ويحفز الإرادة. إنه قوة هادية، وقوة محركة، وقوة ضابطة، وقوة مطمئنة.

الإيمان قوة هادية

هو قوة هادية: لانه يحدد للإنسان وجهته، ويعرفه غايته ومنهاجه، فيحيا على نور، ويمضي على بصيرة.

﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾.. سورة التغابن: 11 . ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.. سورة آل عمران: 101 . ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.. سورة الأنعام: 122.

هذه القوة هي التي جعلت إبراهيم الخليل عليه السلام يرفض ربوبية الكواكب والقمر والشمس؛ إذ يقول: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الأنعام: 79.

قوة حافزة

وهو قوة محركة، تحفز الإنسان إلى العطاء والبناء، وعمل الصالحات، واستباق الخيرات؛ ولذا قرن القرآن الإيمان بالعمل في نحو تسعين موضعًا؛ ولهذا قال السلف: ليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل.

وحين قال اليهود والنصارى: «لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا او نصارى» رد عليهم القرآن بقوله: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ × بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .. سورة البقرة: 111، 112. فهذا هو البرهان على صدق الإيمان: إسلام الوجه لله مع إحسان العمل.

والقرآن يجسد الإيمان في أخلاق ومشاعر وأعمال، لا في جمل وعبارات فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ × الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ × أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ سورة الأنفال: 2 – 4.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ .. سورة الحجرات: 15.

يؤكد ذلك أحاديث الرسول الكريم التي جعلت الإيمان بضعًا وستين، او بضعًا وسبعين شعبة، الفت فيها كتب جامعة، لبيانها وإحصائها وشرحها.

وفي الصحيحين: «الإيمان بضع وستون او بضع وسبعون شعبة، أعلاها: لا إله إلا الله، وادناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان».

الإيمان هو الذي جعل إبراهيم الخليل عليه السلام يقدم على ذبح ولده وفلذة كبده طاعة لله، وجعل ابنه الفتى المترعرع، يقول لأبيه وقد قال له: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ .. الصافات: 102.

قوة ضابطة

والإيمان كما انه قوة دافعة إلى فعل الخير هو كذلك قوة ضابطة تزع صاحبها عن الشر، وتلجمه بلجام التقوى، وتردعه عن الإثم، وعن الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

الإيمان هو الذي يضع نصب عيني المؤمن دائمًا رقابة الله تعالى، وحساب الآخرة، وعقيدة الثواب والعقاب، والجنة والنار، وبذلك يكون هو رقيبًا على نفسه، بشارطها قبل العمل، ويحاسبها بعد العمل، ويلومها عند التقصير، وقد يعاقبها بالتقريع والتانيب، وبغيرهما من وسائل التاديب، كما هو شان «النفس اللوامة».

الإيمان هو الذي جعل ابن آدم الخيّر يقول لأخيه الشرير: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.. المائدة: 28.

الإيمان هو الذي جعل يوسف بن يعقوب عليه السلام يرفض الشهوة الحرام، وهو في عنفوان شبابه، وقوة رجولته، وهي التي سعت إليه، ولم يسع إليها: فهو يقول للمرأة التي هو في بيتها، والتي تملك امره، والتي راودته عن نفسه بالتصريح لا بالتلميح ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.. يوسف: 23.

وحين لم يفلح معه الإغراء، جربت معه التهديد، فمن لم يذله الوعد قريما لانه الوعيد، فقالت امام النسوة: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾.. يوسف: 32.

فما كان من هذا الشاب المؤمن إلا ان لاذ بالركن الركين، والحصن الحصين، لاذ بربه، قائلا: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾.. يوسف: 33.

مصدر للسكينة

والإيمان بعد ذلك قوة تزرع في النفس السكينة، وفي القلب الأمن والطمانينة، وهما ينبوع السعادة الحقيقية التي تنبع من الداخل، ولا تستجلب من الخارج.

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾.. الفتح: 4.

يحدثنا القرآن عن إبراهيم؛ إذ حاجه قومه وجادلوه، وخوفوه من آلهتهم ان تصيبه بسوء! فقال: ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ × وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ × الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.. الأنعام: 80 – 82.

ومعنى لم يلبسوا إيمانهم بظلم: اي لم يخلطوا توحيدهم بشرك، فهم لا يدينون إلا لله، ولا يخشون إلا لله، ولا يرجون او يخافون إلا الله.

وهذا التوحيد الخالص هو الذي وهبهم الأمن النفسي الذي حرمه غيرهم، ممن يخافون من كل شيء، حتى من الأوهام، كما هو شان أهل الشرك الذين قال الله فيهم: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾.. آل عمران: 151.

ومن هنا نجد المؤمن كالطود الأشم، تضطرب الدنيا من حوله، وتثور العواصف، وتزمجر الرعود، وتبرق البروق، وتنقلع الأشجار، وتفيض الأنهار، وتعلو امواج البحار، وهو هو: ثابت لا يتزحزح، راسخ لا يتارجح، فقد وضع قدمه على باب الله، ووضع يده في يد الله، ووصل حباله بحبل الله تعالى: فبه يعتصم، ومنه يستمد، وإليه يتوجه، وعليه يتوكل ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .. الأنفال: 49.

شعاره ما قاله الله لرسوله: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.. سورة التوبة: 51.

آية وشرح

الآية 9 من سورة الحشر

جاء في القرآن الكريم، في سياق مدح الأنصار وموقفهم من إخوانهم المهاجرين، قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾... (الحشر:9)، والآية وإن وردت في شان الأنصار، إلا انها ايضا تخاطب المؤمنين عمومًا، وتحثهم على التحلي بهذا الخلق الكريم خلق الإيثار، لأنه من طرق الفلاح والنجاح.

لكن بالمقابل، نجد نصوصًا من السنة النبوية، تخاطب المكلفين وتامرهم بان يبدأوا بالإنفاق على انفسهم اولا، ثم على أهلهم، ثم على الأقرب فالأقرب؛ وفي هذا السياق نقرأ قوله صلى الله عليه وسلم: (خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول) رواه البخاري ومسلم.

وقوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذي اراد ان يتصدق بكل ما يملك: (ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلاهلك، فإن فضل عن اهلك شيء فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء، فهكذا وهكذا) رواه مسلم؛ وقد روي عن بعض الصحابة رضي الله عنهم، انه اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم متصدقا بجميع ما يملك، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ان يقول لهم: (ياتي أحدكم بما يملك، فيقول: هذه صدقة، ثم يقعد يستكف الناس، خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى) رواه ابو داود.

وجملة: (خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى) في الصحيحين، ونحو ذلك من الأحاديث.

وقد يبدو وجود نوع من التعارض، بين آية سورة الحشر، التي مدحت الذين يؤثرون على انفسهم، ولو ادى بهم هذا الإيثار إلى الفقر والحاجة، وبين الأحاديث الصريحة، التي تامر بالبدء بالإنفاق على النفس والأهل اولا، وتنهى عن التصدق بجميع المال. فكيف جمع العلماء بين هذه الآية والأحاديث السابقة؟

ذكر العلماء في وجوه الجمع ان الإيثار إنما يكره في حق من لا يملك الصبر على الفقر، ويخاف ان يتعرض لسؤال الناس، والطلب منهم، إذا آثر غيره على نفسه؛ اما إذا كان يصبر على الفقر، ويعلم من نفسه انه لن يصل به الأمر إلى حد سؤال الآخرين، فالإيثار في حقه افضل.

وهذا حال الأنصار الذين اثنى الله عليهم بالإيثار على انفسهم، فقد كانوا كما قال الله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾.. (البقرة:177)؛ فكان الإيثار في حظهم افضل من الإمساك.

وذكروا ايضا ان الإيثار من باب الفضل والإحسان المستحب، والصدقة على النفس والأهل من باب العدل الواجب؛ وفعل الواجبات هو الذي ينبغي على المكلف القيام به اولا، اما فعل ما هو مستحب فياتي تاليًا لما هو واجب، وبشرط الا يتعارض معه، او يزاحمه.

وقد وردت احاديث عديدة، تفيد بان الواجب على الإنسان ان يبدا بالإنفاق على نفسه اولا، ثم على اهله، ثم على الأقرب فالأقرب، كقوله صلى الله عليه وسلم: (ابدأ بنفسك، فتصدق عليها) رواه مسلم، وقوله: (وابدأ بمن تعول) رواه البخاري ومسلم، وقوله: (كفى بالمرء إثمًا، ان يضيع من يقوت) رواه ابو داود.

وإذا كان الأمر كذلك، فلا يكون الإيثار، ولا يصار إليه، إلا بعد اداء الواجبات، وإيصال الحقوق إلى اصحابها، فإن ادت الواجبات، كحقوق النفس والأهل والأقارب، فحينئذ يكون الإيثار مستحبًا.

وعلى ضوء ما سبق، يمكننا فهم الأحاديث والوقائع الدالة على إنفاق بعض الصحابة، ومن بعدهم، كل ما يملكونه من مال، كفعل ابي بكر رضي الله عنه، عندما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم متصدقًا بجميع ماله، وساله رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما ابقيت لأهلك)، فاجاب ابو بكر رضي الله عنه: (ابقيت لهم الله ورسوله) رواه ابو داود والترمذي، فلم ينكر صلى الله عليه وسلم على ابي بكر رضي الله عنه تصدقه بجميع ماله؛ لما علمه من صحة نيته، وقوة يقينه وصبره؛ لذلك لم يخف عليه الفتنة.

ومن هذا القبيل ايضًا فعل عائشة رضي الله عنها، (ان مسكينا سالها وهي صائمة، وليس في بيتها إلا رغيف، فامرت خادمتها ان تعطيه إياه). رواه مالك، فامثال هذه الأخبار، إنما تصح في حق من علم من نفسه القدرة على الصبر، والتكفف عن سؤال الناس، وعدم تفريطه ايضا بحقوق الآخرين، وهذا ما كان عليه حال الصحابة رضي الله عنهم.

وحاصل القول، ان الخطاب في اية الإيثار، وارد على سبيل الاستحباب والأفضلية، وفي حق من علم من نفسه القدرة على الصبر وتحمل الضيق، ومن غير ان يضيع حقوق الآخرين، ومن غير ان يدفعه الإيثار إلى سؤال الناس.

اما الأحاديث الآمرة بالإنفاق على النفس والأهل، فالخطاب فيها وارد على القدر الواجب من النفقة على النفس، والأهل، واداء حقوق الآخرين، وعلى ضوء ذلك تتوافق النصوص، وتتفق ولا تختلف.

المنتقم - العفو - الرؤوف - مالك الملك - ذو الجلال والإكرام

المنتقم

النقمة هي العقوبة، والله المنتقم الذي يقسم ظهور الطغاة ويشدد العقوبة على العصاة وذلك بعد الإنذار بعد التمكين والإمهال، فإنه إذا عوجل بالعقوبة لم يمعن في المعصية فلم يستوجب غاية النكال في العقوبة.

والله يغضب في حق خلقه بما لا يغضب في حق نفسه، فينتقم لعباده بما لا ينتقم لنفسه في خاص حقه، فإنه إن عرفت أنه كريم رحيم فاعرف أنه منتقم شديد عظيم، وعن الفضل أنه قال: من خاف الله دله الخوف على كل خير.

العفو

العفو له معنيان:

المعنى الأول: هو المحو والإزالة، والعفو في حق الله تعالى عبارة عن إزالة اثار الذنوب كلية فيمحوها من ديوان الكرام الكاتبين، ولا يطالبه بها يوم القيامة وينسيها من قلوبهم كيلا يخجلوا عند تذكرها ويثبت مكان كل سيئة حسنة.

المعنى الثاني: هو الفضل، أي هو الذي يعطي الكثير، وفي الحديث: (سلوا الله العفو والعافية) والعافية هنا دفاع الله عن العبد، والمعافاة أن يعافيك الله من الناس ويعافيهم منك، أي يغنيك عنهم ويغنيهم عنك، وبذلك صرف اذاك عنهم واذاهم عنك وحظ العبد من الاسم أن يعفو عمن أساء إليه أو ظلمه وأن يحسن الى من أساء اليه.

الرؤوف

الرؤوف في اللغة هي الشديد الرحمة، والرأفة هي نهاية الرحمة، والرؤوف في أسماء الله تعالى هو المتعطف على المذنبين بالتوبة، وعلى أوليائه بالعصمة، ومن رحمته بعباده أن يصونهم عن موجبات عقوبته، وإن عصمته عن الزلة أبلغ في باب الرحمن من غفرانه المعصية، وكم من عبد يرثي له الخلق بما به من الضر والفاقة وسوء الحال وهو في الحقيقة في نعمة تغبطه عليها الملائكة.

وقيل ان نبيا شكى الى الله تعالى الجوع والعرى والقمل، فأوحى الله تعالى اليه: أما تعرف ما فعلت بك؟ سددت عنك أبواب الشرك. ومن رحمته تعالى أن يصون العبد عن ملاحظة الأغيار فلا يرفع العبد حوائجه إلا إليه، وقد قال رجل لبعض الصالحين ألك حاجة؟ فقال: لا حاجة بي الى من لا يعلم حاجتي. والفرق بين اسم الرؤوف والرحيم أنه تعالى قدم الرؤوف على الرحيم والرأفة على الرحمة. وحظ العبد من اسم الرؤوف أن يكثر من ذكره حتى يصير عطوفا على الخاص والعام ذاكرا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، ومن قطع رجاء من ارتجاه قطع الله رجاءه يوم القيامة فلن يلج الجنة.

مالك الملك

من اسماء الله تعالى الملك والمالك والمليك، ومالك الملك والملكوت، مالك الملك هو المتصرف في ملكه كيف يشاء ولا راد لحكمه، ولا معقب لأمره، والوجود كله من جميع مراتبه مملكة واحدة لمالك واحد هو الله تعالى، هو الملك الحقيقي المتصرف بما شاء كيف شاء، إيجادا وإحياء وإماتة، تعذيبا وإثابة من غير مشارك ولا ممانع. ومن أدب المؤمن مع اسم مالك الملك أن يكثر من ذكره وبذلك يغنيه الله عن الناس. وروى عن سفيان بن عيينه قال: بينما أنا أطوف بالبيت إذ رأيت رجلا وقع في قلبي أنه من عباد الله المخلصين فدنوت منه فقلت: هل تقول شيئا ينفعني الله به؟ فلم يرد جوابا، ومشى في طوافه، فلما فرغ صلى خلف المقام ركعتين، ثم دخل الحجر فجلس، فجلست إليه فقلت: هل تقول شيئا ينفعني الله به؟ فقال: هل تدرون ما قال ربكم: أنا الحي الذي لا أموت هلموا أطيعوني أجعلكم ملوكا لا تزولون، أنا الملك الذي إذا أردت شيئا قلت له كن فيكون.

ذو الجلال والإكرام

ذو الجلال والإكرام اسم من أسماء الله الحسنى، هو الذي لا جلال ولا كمال إلا وهو له، ولا كرامة ولا مكرومة إلا وهي صادرة منه، فالجلال له في ذاته والكرامة فائضة منه على خلقه، وفي تقديم لفظ الجلال على لفظ الإكرام سر، وهو ان الجلال إشارة الى التنزيه. وأما الإكرام فاضافة ولابد فيها من المضافين، والإكرام قريب من معنى الإنعام إلا انه اخص منه، لأنه ينعم على من لا يكرم، ولا يكرم غالا من ينعم عليه، وقد قيل ان النبي صلى الله عليه وسلم كان مارا في طريق إذ رأى اعرابيا يقول: (اللهم إني أسالك باسمك الأعظم العظيم، الحنان المنان، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام).